بين الأدب والاقتصاد

بقلم محمد مفيد الشوباشي

كانت الفكرة السائدة عن الأدب والفن منذ القدم حتى منتصف القرن الماضي أنهما واحة ترفرف ظلالها وسط شدائد الحياة ومكارهها ، وأن الناس يلوذون بتلك الواحة هروباً من هجير العيش ، وتطلعاً الى ما يرطب جفاف المعاملات اليومية الرتيبة المبتذلة . ومن ثم نشأت مظنة انفصال الأدب والفن عن معترك الحياة . أليسا واحة قائمة خارج حدود الحياة الجاهدة ؟

ألا يعبران ، كما كان يظن ، عن المعنويات الجميلة المنزهة عن أغراض العيش المادية ؟ ..

فلا عجب أن يقابل رأي المذهب الواقعي الجدلي في الأدب والفن بانكار المتشبثين بتلك الفكرة التي ظلت تستحوذ على العقول حقباً طويلة ، ذلك لأنه يقرر أن معنويات الحياة تنبت في تربة الماديات ، وأن جذورها تستمد لها الحياة والازدهار من تلك التربة .

على أن النفور المستحكم بين أنصار المذهب المثالي الخيالي القديم ، وبين أنصار المذهب الواقعي الجديد لم تخف حدته على مر الزمان ، بل ازداد استفحالا وحدة ، ذلك لأن الكثيرين من الفريقين لم يدركوا الأمر على حقيقته ، فأغلبية الأولين تظن أن المذهب التقدمي الواقعي ينكر معنويات الوجود ويزدريها ، ولا يقيم وزناً إلا للماديات . وهذا الظن مشوب بالخطأ الصارخ . على أنه قد يكون لتلك الأغلبية عذرها في خطأها ، ما دام كثيرون من الفريق الثاني واقعين في نفس الخطأ . فالاحتفال بالماديات دون المعنويات جنوح انتهازي ، ورأي عامي يناقض ما يقرره المذهب الجدلي المادي الذي يعتنقه اليوم أئمة من أهل الأدب والفن .

كان أفلاطون يفسر الأحاسيس الجمالية بأنها وليدة ذكرى حياة سالفة قضاها الإنسان في السماوات العلى بين الآلهة . ومعنى ذلك أنه ينكر أن يكون في هذه الحياة الأرضية جمال جدير باستثارة تلك الأحاسيس الموحية بالآداب والفنون . وإذا كان الزمن قد جرف آلهة أفلاطون في تياره ، ولم يبق أحد يؤمن بالحياة السماوية السابقة التي حدثنا ذلك الفيلسوف عنها ، وقال إنها المنبع الذي تترقرق منه أحاسيس أهل الأدب والفن ، فان المثاليين . وهم الذين لم ينكثوا بعهده ، ظلوا يؤمنون بانقطاع الصلة بين جمال المعنويات التي هي لا مادية ولا أرضية ، وبين قبح الماديات الأرضية . فاذا لم تكن الأحاسيس الجميلة ذكرى حياة سابقة قضاها الإنسان بين الآلهة ، فهي على الأقل وليدة وحي أو إلهام لاصلة له بالعالم الأرضي .

ولكن « هيجل » فطن الى ظاهرة قوضت مذهب الأدب والفن عن الحياة الواقعية ، فقد لاحظ أن وعي الناس يتطور على مر الدهور ، وأنه يتكشف في كل مرحلة تطورية مقيداً بوضع عصره الاقتصادي والاجتماعي . أي أن ذلك الفيلسوف ربط بين تطور الفكر وبين التطور الاقتصادي والاجتماعي . وكان هذا الكشف جديراً أن يهدي صاحبه الى ناموس تطور المجتمعات لولا أن ذلك الفيلسوف المثالي فهم الأمر على وضع معكوس ، فظن أن تطور المجتمعات المادي يتم بارادة الوعي أو الفكر . ويرجع خطأه هذا الى أنه لم يستطع الخلاص من سيطرة أفلاطون الذي قرر أن للفكر وجود أسبقاً على الحياة الأرضية ومستقلا عنها .

هكذا غفل المفكرون المثاليون ، حتى هيجل ، عن ادراك تلك الحقيقة الواقعية الواضحة ، وهي أن الاتجاهات الفكرية وليدة الوضع الاجتماعي والتطور التاريخي المحددين بالوضع الاقتصادي ، وأن ارتباطها بهما هو ارتباط التابع بالمتبوع . وما خفيت تلك الحقيقة الواضحة عن المفكرين المذكورين إلا لإصرارهم على إغماض أعينهم

يتناول الكاتب في هذا المقال الحديث عن علاقة الادب بالاقتصاد في مقارنة بين مذهبي الواقعيين والمثاليين . وهو يستشهد مطولاً بآراء احد ائمة المذهب الواقعي . ونحن لا ننشر هذا المقال ايماناً منا بصحة النظرية التي يقوم عليها ، بل ننشره لندعو الادباء والقراء الى مناقشته التماساً لوجه الصواب في الموضوع .

« الآداب »

عن الواقع ، هائمين في عالم افلاطون الخيالي .

لقد وقع هيجل في سلسلة من التناقض ابتدأها بزعمه أن الفكر سابق على الواقع المادي رغم تسليمه بارتباط الفكر في مراحل تطوره بأوضاع العصر الاجتماعية والتاريخية ، وانساق بعض أهل الرأي وراءه غافلين عما تورطوا فيه من تناقض . ألم يقرروا أن الإنسان وليد عصره ، بل عبد عصره لايستطيع من ربقته انفكاكاً؟ ألم يقولوا إن الأديب والفنان لا يستطيعان الخلاص من تأثير عصرهما ، بل وبيئتهما ؟؟ وإن إنتاجهما الفني يتعين بذلك التأثير ؟ فاذا كان أصيلا صادقاً صار لامناص مرآة لزمنهما ؟ يؤيدون ذلك ولا يرجعون في نفس الوقت عن المعتقد القديم الذي يقول إن الإنتاج الفني الأصيل وليد موهبة مستقلة عن الحياة بُثّت في صدر الفنان قبل مولده. أو هو نفحات وحي هابط عليه من عالم مجهول .

رأي ديكارت أن التوفيق في البحث عن الحقيقة رهن بتخلص الباحث من المعتقدات العتيقة السابقة ... ولكن ذلك الفيلسوف لم يستطع الخلاص منها . وكل ما استطاعه كان الإتيان ببراهين جديدة للتدليل على صحتها . ومرجع ذلك إلى اعتماده على النهج المثالي التأملي وحده في طراده للحقيقة . وقد اتبع فلاسفة الغرب نفس النهج حتى طلع المذهب الواقعي الجدلي الذي رأى الحقيقة واضحة بسيطة بعد تخلصه من الأوهام الأفلاطونية . رأى أن كل مجتمع مكوّن من قاعدة سفلية هي عبارة عن وضعه الاقتصادي ، ومن صرح علوي هو معتقدات ذلك المجتمع ومثله الفكرية وفنونه وآدابه . وأن الصرح العلوي يساير القاعدة في تطورها ، تتحدد معالمه في النهاية بها . بعد تأثره بها وتأثيره فيها على التوالي ...

ولكن هذا الرأي ، رغم وضوح معناه ، تعرض لسوء التفسير سواء من جانب المثاليين المعارضين الذين حاولوا تشويهه ، أو من جانب بعض المؤيدين الذين لم يفهموه على حقيقته . فقد فسره كل من المغرضين والضالين بأنه ينسب كل خطة فكر ، وكل خفقة قلب ، وكل مسعى للناس الى دافع مادي مباشر . أي أن كل نشاط فردي أو جماعي يقوم على اساس اقتصادي ، مباشر أو يتوخى هدفاً اقتصادياً . وهذا التفسير للاتجاهات الفكرية . والمساعي الإنسانية تفسير مادي بحت تنكره الواقعية السوية كل الإنكار . لأنها تقول إن المعنويات تتولد أصلا من الواقع المادي ، وتتحدد به آخر الأمر ، ولا تقول إن المعنويات تخضع له خضوعاً مباشراً ، وتترسم خطاه خطوة خطوة على غرار ما يقول أصحاب ذلك التفسير الضيق الذين شيدوا لهم مذهباً عرف باسم المذهب الاقتصادي البحت . على أنه رغم قيام هذا المذهب المعارض للواقعية نجد خصومها وبعض أنصارها غير الواعين لحقيقة مضمونها ، يخلطون كما قلنا بينها وبينه ، فاذا قال الأولون أي الخصوم عنها انها مذهب لقمة العيش . أجاب الأنصار الضالون في زهو واصرار : نعم ، هي مذهب لقمة العيش ! ! ...وإذا قال الأولون إنها تتحكم في ضمائر أهل الأدب والفن ، وتحظر عليهم أن يتناول إنتاجهم غير المشكلات الاقتصادية ، أجاب الآخرون في تحد وعناد : نعم يجب على الآداب والفنون أن تقتصر على تناول المشكلات الاقتصادية ! ! وما أشد ظلم الفريقين للواقعية ! ! ..

وقد ظن الشعراء والفنانون الواقعون تحت تأثير ذلك الضلال أنهم ينالون شرف الاتصاف بالتقدمية إذا قصروا إنتاجهم على تصوير ما يعانيه المعوزون من شظف العيش ، ومن ذل العوز والحرمان . فانحصر إنتاجهم في دائرة محدودة ، وأصبح يجري على وتيرة واحدة ، فيعرض نفس الصور الذليلة ويكرر نفس العبارات المبتذلة الهزيلة ، البعيدة كل البعد عما يتطلبه الفن من أصالة وجدة. لقد تحول الإنتاج الفني والأدبي الى صور منسوخة من نماذج موضوعة ممسوخة تنفر منها الواقعية كل النفور .

وقد آن لنا أن نثبت هنا شرحاً للواقعية كتبه إمام من أئمتها في هذا العصر معتمداً فيه على نصوص ذلك المذهب ، ونقصد جان فريفيل ، قال في كتابه «الأدب» والفن في ضوء الواقعية» :

« إن التمسك بالواقعية يقتضي مكافحة المثل الفكرية التي تعزل الفن عن الحقيقة الاجتماعية والتاريخ . وتتلاعب بالأفكار وتحصر الإنسان في علم التجريدات . وتزيف الوقائع وتفتتها في سبيل مطالب مذهبها ...

« على أن مكافحة أساليب المثالية المختلفة يجب ألا تؤدي الى تبسيط الواقعية ، فان منهج هذا المذهب الأخير ينقلب الى نقيضه إذا أخذنا منه نماذج جاهزة لدى التطبيق نفصل عليها الوقائع التاريخية بدل اتخاذه مرشداً لدى دراسة التاريخ ...

« إن انعدام التناسب بين القاعدة الاقتصادية وبين بنائها

الأعلى الأيديولوجي هو أحد تناقضات المجتمع الطبقي ، فليس هناك إذن تركيب أو « وصفة » جاهزة لاستخلاص العمل الفني كرة واحدة من « الواقعية » . وليس ثم مفتاح عالمي يحل المشكلات جميعها ، فالآية الفنية لا يمكن أن تنحدر لتصبح معادلة من المعادلات الاقتصادية أو الاجتماعية ...

« إن الرجوع بالفن الجمالي الى حيث يصبح بحثاً اجتماعياً أولياً ، واستخلاص البناء الأعلى الايديولوجي بطريقة آلية مباشرة من القاعدة الدنيا الاقتصادية ، مع إهمال الصلات والأساليب التي تربط ما بينها ، والغفلة عما ظل حياً منها ومن ذيولها التي يرجع أصلها الى عهد ما قبل التاريخ ، والاقتصار على إبراز العامل الاقتصادي السلبي ، والتجاوز عن أي عامل من عوامل العمل المركبة المتكاثرة أو إهمال شأنه ، إن ذلك جميعه تشويه للواقعية ...

« إن التبسيط ، والمذهبية الضيقة الأفق يكشفان عجز الفنان والناقد إزاء تعقد العملية الواقعية لسير الوجود ، وتنوع الحياة وغناها . إن العمل الفني الكروكي لا يفسر شيئاً ، ولا يبتعث أية هزة شعورية حتى ولو تضمن آراء سياسية صائبة . فالكروكية المصوغة حيثما اتفق تكشف الضعف الأيديولوجي والفني ، وتدل على الأدب الصادع للأمر . فالعمل الفني الأصيل ينبعث في ذهن الكاتب او الفنان ، ويستجيب لدافع داخلي ، لا لنماذج مفروضة . وهو لا يزدهر إلا في دفء الحرية الخالقة ...

« كذلك تحاشى الفلاسفة الواقعيون أن يشرعوا نواميس للفنون ، وأن يتسلطوا على الأدباء والفنانين ، فقد أيدوا الشعراء الثوريين وأسدوا لهم النصح ، ولكنهم لم يحاولوا قط قهر إلهامهم وحريتهم .

« يطالب هؤلاء الفلاسفة كل مشايع للواقعية بتحليل الحقيقة الحية ، ويحذرونه كل جمود في العقيدة ، وكل ضيق أفق وطائفية ووصولية . فالروح الطائفي استفحل باسم « صيانة المذهب ونقائه » يتجمد في حالات التعصب ويختنق في صيغ محدودة ، ويشرع نواميس جمالية ، ويغرس الروح الكنسي ، ويجرد الماضي من كل مضمون ، ويضيق الخناق على الحاضر ، ويزيف محتملات المستقبل ... وهو يستبدل التبرير بالتحليل ، والرغبة بالحقيقة ، والرسم الكروكي بالحياة .

« هذه هي العيوب التي تشوب أدب الطبقة العاملة عادة .

وقال جان فريفيل في موضوع آخر من الكتاب نفسه :

« ليس هنالك عمل أدبي أو فني يمكن أن يفلت من النفوذ الاجتماعي ، فاذا أشادت الرأسمالية الغربية بحرية الفن ، فانها استعبدت الفنان استعباداً أشد أختناقاً من كل ماعرف به في عهود النظم السابقة عليها . لقد أصبحت الأعمال الفنية في الواقع سلعة تتحدد قيمتها بنسبة التوفيق في عملية البيع . وهذا التوفيق لا يقوم إلا على التقدير والوساطة الرأسمالية التي يملكها الناشرون ومديرو المسارح ومعارض الفن . وهو لا يقوم كذلك إلا على مجاراة الفنان للآراء والأذواق التي يفرضها أعضاء « أركان حرب » الفن البورجوازي على الجمهور . فالفنان الذي يظن نفسه حراً إنما يوهم نفسه بذلك . ولابد له من غلبته على حريته لينالها ...

« إن الطبقات الحاكمة تعد الأدب والفن حكراً لها . ولكن التناقض والصراع المتحكمين في بناء المجتمع الأدنى ، والمتسببين في تغيير أوضاعه ، ينعكسان حتى في بنائه الأعلى . فالأدب والفن لا يمثلان آفاقاً أثيرية بعيدة عن التأثر بالاضطرابات الأرضية . بل هناك المعركة حيث تواجه الأفكار المتنابذة بعضها بعضا ، وحيث تقع المبارزة التي لا رحمة فيها بين القديم وبين الجديد ، فتسقط حتى الأفكار الصامدة للطعان وتموت . وحيث يؤدي انتصار المعتقدات المعنوية أو اندحارها الى تغيرات عميقة تتناول حياة الناس المادية ...

« إن تاريخ الآداب والفنون يظل غير مفهوم على حقيقته عن الصراع المادي ، فهو لا يصور ذلك الصراع فحسب ، ولكنه يؤلف عاملا من عوامله . ذلك لأن الأفكار التي تنبثق منتصرة في الصدور لا تلبث أن تتجسم في الوقائع والأحداث.

« يصبح الكاتب ، حين يعتور العجز موهبته ، مغرى كل الإغراء بأن يداري عجزه بالاجتماع وراء مثل فكرية فلسفية أو سياسية ، ويغدو ذا اتجاه واضح ليكتسب جمهوراً من القراء ويتحفنا على هذا النحو بأدب غث ... »

هذه الآراء التي نقلناها عن فريفيل هي في الواقع عرض ملخص لوجهة نظر الفلاسفة الواقعيين في الأدب والفن . وقد يقال إنها لا تغني عن النصوص الأصلية ، ولكنها تتضمن في الواقع كثيراً من هذه النصوص المنقولة حرفياً . ونختم ما نسوقه منها هنا بما يأتي :

— البقية على الصفحة ٥٧ —

بين الادب والاقتصاد

تتمة المنشور على الصفحة ٢٨ –

« ولكن هل تنكر الواقعية القصة ذات الرسالة بمعنى الكلمة السامي ؟ وهل ترفض الشعر والدراما الملقّحة بالآراء السياسية والإجتماعية ؟ كلا بالطبع . ويدل على ذلك كل ما بذله الفلاسفة الواقعيون من جهد لتنشيط الشعر التقدمي والأدب الثوري . كان هؤلاء الفلاسفة يتطلبون من الفنان أن يكون واسع الثقافة ، متمكناً من مصادر علمه ، ومن صدق حكمه . وأن تكون له أستاذية في مهنته تتيح له القيام بدوره ، دور الموقظ المرشد ... وكانوا يرفضون أدب الدعاية العاطل من الفن ، وعبارات الإقناع التي تحل محل تصوير الحياة ، والكروكي الذي يضلل ويورث الفقر الأدبي والعقم الفني ...

« فالآراء السياسية لاتستطيع في نظرهم أن تقوم مقام الموهبة الفنية ، وكذلك لا يكفي الشعور المحمود والأعتقاد السليم للتمكين من تحبير الكتب الجيدة ، إذ يجب أن يتفجر العمل الفني من الواقع الاجتماعي ، وينسج مادته من الحياة . ولكنه مع ذلك لا يصمد ولا يهيمن إلا بقيمته الفنية التي ترتكز على كل من ثراء المضمون وتألق الشكل وحسن الختام. لقد كان الفلاسفة الواقعيون ينقبون بحثاً عن هذه القيم الفنية...»

ونعلق على ما تقدم فنقول إن الواقعية تقرر سبق الواقع المادي على الفكر . وتقرر كذلك أن له وجوداً خارج الفكر مستقلا عنه ومنعكساً عليه ، بعكس الفلسفة المثالية التي ترى أن الوجود المادي الذي نتمثله لا يقوم إلا داخل ذهن الإنسان أي أن الصور المنطبعة في ذهننا عنه هي الحقائق التي نؤمن بها دون أن يستتبع ذلك مطابقتها للأصل الواقعي الذي لا يمكن الوقوف على حقيقته . وبناء عليه يكون البحث عن الحقيقة داخل الذهن لا خارجه . وفي ضوء ما تقدم يتضح مذهب الواقعية في الأدب والفن ... فهي ترى اقتباس الآيات الفنية من واقع الحياة بدل مطاردتها في سراديب العقل الباطن أو بوساطة سبحات التأمل المجرد . وهذه الآيات الفنية تغنى وتزخر بالحيوية والجمال إذا كانت ثورية ، أي مناصرة للجديد النامي المعافي في كفاحه ضد القديم المتعفن المتداعي ، ودافعة للتطور التاريخي الى الأمام ، وعاملة على تطوير الحياة الى الأحسن ... ولا يعني لفت نظر الفنان الى هذه الحقائق الحجر على حريته . ولكنه من قبيل النقد المشروع لكل ناقد يحاول تبصير الأديب والفنان بأوجه النقص أو الخطأ ، وأوجه الصواب على السواء .

القاهرة — محمد مفيد الشوباشي

٦٦٥

الثريات الانيقة

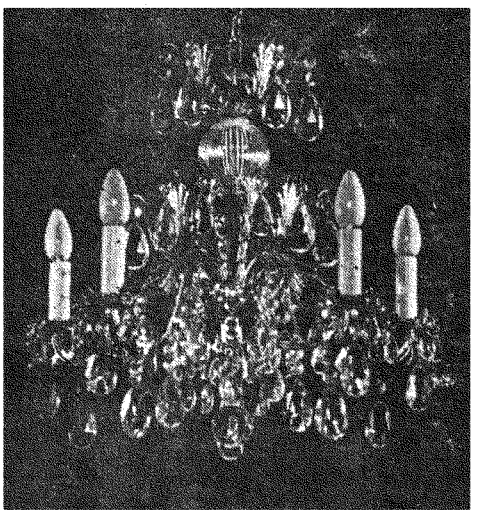

والاواني الجميلة

تجدونها في معارض

كمال وشركاه

جانب اوتيل بريستول – بيروت